"عَمَلِيَّاتُ العَقْلِ-المَفْتوح" (Open-Mind Surgeries) – حَلْقَة (21)

أَمَا آنَ للتَّأَرجُحِ البَنْدُولِيّ أَن يَستَقِرّ؟!

حَقُّ المرأةِ ودَورُها: غِيابُ الاستِجابَةِ... وغَلَبَةُ الفِعلِ ورَدِّ الفِعل!

عزّام محمد زقزوق*

اقتَرَحَ عَلَيَّ إعلاميٌّ صديقٌ الكتابةَ حولَ أثَرِ ظاهِرَةِ الكاتِبَةِ الرِّوائِيَّةِ، والطبيبةِ المِصرية، المدافِعَةِ عن حقوقِ الإنسان عامَّة! وحقوقِ المرأة خاصَّة!! والمُتَوَفَّاةِ مُؤَخَّرًا د. نَوال السِّعداوِي.

ولِقَناعَتي اليَقِينِيَّةِ الرَّاسِخَةِ بأنَّ ضمانَ صلاحِ أعمالِنا، وغُفرانِ ذنوبِنا، لا يتحقَّقُ إلَّا **بالعَدلِ والسَّدادِ** في **أقوالِنا**... ابتِداءً؛ فقد عزَمتُ الكتابةَ مُبتَغِيًا ومُتَّقِيًا اللهَ ﷻ؛ بمُوجِبِ أمرِهِ الكريم: "**يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم...**"(الأَحْزاب:70-71)

مِن حقائقِ الوُجودِ السُّنَنِيَّةِ أَنَّ **التَّدافُعَ الحَضارِيَّ** القائِمَ، **وَالفِعْلَ وَرَدَّ الفِعْلِ** (Reaction) **السَّلْبِيّ** النَّاتِجِ عَنْهُ، لا بُدَّ مِنْ مُرُورِهِ ظاهِرِيًّا **بِالتَّأَرْجُحِ البَنْدُولِيّ** (Pendulum Swing)! حَيْثُ يُفْتَقَدُ دَوْرُ **المُنَظِّرِينَ**... **وَالقِيادِيِّينَ**... في تَعْجِيلِ **اسْتِقْرارِ** تَأَرْجُحِهِ! ثُمَّ قِيادَتِهِ لحالَةِ **الاسْتِجابَةِ** (Response) **الإيجابِيَّةِ**! قالَ تعالى: "**...وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْض...**"(البَقَرَة:251) وظاهِرةُ الرَّاحِلَةِ د. السِّعداوِي **ليسَت استِثناءً**...!

موضوعُ **حقِّ** المرأة ودَورِها في المجتمعات العربية المسلمة! هو **جوهر** ظاهرة د. السِّعداوِي؛ الذي أحدَثَتْهُ في واقعنا المعاصر... وهو **موضوعٌ** في الأصل، **وَجِيهُ** السَّبَبِ... **عَظِيمُ** الأثَرِ... ولَو لَم تَخُضْ فيه هي لَخاضَ فيه غيرُها بالضرورة (أمثال: السياسية الشركَسِيَّة الأردُنِيَّة تُوجان الفيصل...)؛ وذلك لاعتبار الحقيقة الفطرية أنَّ "**الكَونَ يَكرَهُ الفَراغ**"! ولأنَّ الحركات التغييرية الإسلامية المعاصرة **قَصَّرَت** عن مَلئِهِ، بَل **وفَرَّطَت** في تَحَمُّلِ مسؤوليتِهِ؛ **فَهمًا**... **وتَصَوُّرًا**... **وسُلُوكًا**... ولأنَّ ذات الحركات عُرِفَت بالـ"**إسلامِيَّة**"!! فقد **أُلبِسَ** ثوبُ تقصيرِها وتفريطِها **الإسلامَ**: الدِّينَ، والشريعَةَ، والمِنهاج!

هذا هو **السَّبَبُ الجَذرِيُّ الرَّئيسُ** وراء **فِتنَةِ/ظاهِرَةِ** الفعل ورَدِّ الفعل المذكورة أعلاه؛ والتي استهلَكَتْنا عُقودًا من الزمن... وما زالت...! وضرورةُ تَعَرُّضِنا **للسَّبَبِ** فيها (قبل **الأَثَرِ**...!) **بالمعالجات العلمية** المنهجية على أساس، وبموجب: **النقل** الصحيح، **والعقل** الصريح، **والفطرة** السليمة، وبآليَّةٍ أساليبُها: **الأصالة**، **والمعاصرة**، **والإبداع**! هو ما يجب أن يُعطى **الأَوَّلِيَّةَ والأَوْلَوِيَّةَ**؛ للخروج من حالة تخلُّفِنا وانحِطاطِنا!

أذكُرُ في محاولةٍ مُبَكِّرَةٍ، ومنذ أكثر من رُبع قرنٍ، أنّي اشتَرَيتُ نسخةً من كتاب: "**تحرير المرأةِ في عَصرِ الرِّسالَة**" (دِراسَةٌ عن المرأةِ جامِعَةٌ لِنُصوصِ القرآن الكريم وصَحِيحَي البخاريّ ومُسلِم - ثلاثة مجلدات) لمؤلفه أ. عبدالحليم محمد أبو شُقَّة. وقمتُ حينها مع إحدى شَقِيقاتي (إبَّانَ دراسَتِها في كلية الشريعة) بإهدائه لمكتبة الجامعة الأردنية - عَمَّان. في محاولةٍ لإضاءَةِ شَمعَةٍ...! وللانطلاق مِمَّا/بِما هو **حقٌّ**، و**صوابٌ**، و**صحيحٌ**... والدفع بالاتجاه الصحيح الصائب؛ عِوَضًا عن مجرد لَعنِ الظلام...!!

لَيسَ مِنْ حَقّي! في مَسِيرَتِي التَّغيِيرِيَّةِ النَّهضَوِيَّةِ الإسلامِيَّةِ، الاستِهجانُ أَو العَتَبُ عَلى مَن مَلَأها نِسبِيًّا! أَوْ حَتَّى سَيَملَأها كُلِّيًّا...!! فَمَثلًا؛ **فَراغُ عِلمِيَّةِ** (Scientism) **المُهتَدِينَ**! يُناسِبُهُ عَكسِيًّا **امتِلاءُ عَلمانِيَّةِ** (Secularism) **الضَّالِّينَ**!! لا مَحالَة. وبالتالي؛ لا عَجَبَ مِن أنَّ سَيفَنا في اللِّقاءاتِ **مَثلُوم**! وثَوبَنا في الإلقاءاتِ **مَخرُوم**!!

أَيْنَ للمرأة العربية والمسلمة المُعاصِرةِ المَفَرُّ؟! أَلا يَكفِيها، في ظِلِّ تَعقِيداتِ الحَياةِ التَّراكُمِيَّةِ... **تَكالِيفُ وواجِباتُ** شَرِيعَتِها الإسْلامِيَّةِ الغَرَّاءِ؛ حَتَّى **يُثقِلُوا كاهِلَها**! **وَيُرهِقُوا إنسانِيَّتَها**! بِتَكالِيفِ وَثِقَلِ: **أَعرافِ**، وَ**عاداتِ**، وَ**تَقالِيدِ**، وَ**بِدَعِ**، مُجتَمَعاتِها العَرَبِيَّة الذُّكُورِيَّة؟!! نعم! إنَّ **ذُكُورَتِي** جِنْسٌ (Gender) فِطرِيٌّ... أمَّا **رُجُولَتِي** (Manhood) فهي اخْتِيارٌ شَخْصِيّ...!

رُجولتُنا تقتَضِي تمكينَ المرأةِ في واقِعِنا من **المبادَأةِ** و**المبادَرةِ** بِحَملِ رايَةِ **تغييرها الذاتيّ**... بما ينعكس على "**كُلِّنا**" بِمَزيدِ **عِزَّةٍ**، و**كرامَةٍ**، و**خَيْرِيَّةٍ**! لا أن نقوم بِقَمْعِها، وشَيْطَنَتِها، وعَدِّها مَصدَرَ شُرورٍ، ومَنشأَ آثام...!!

كم **تُحزِنُني** رؤيةُ فتاةٍ قد حُجِبَت طفولتها بحجابٍ شرعيٍّ قبل أوانِ بُلُوغِها!! كم **تُؤسِفُني** صورةُ أُسْرَةٍ في وسائلِ التواصلِ الاجتماعيّ تجمع الأبَ والأولادَ دون أُمِّهم!! كم **أَرْثِي** حالَ تناقضٍ صارخٍ عند نسائنا حين يُساوِمْنَ بائعي الملابس الداخلية! ويتَحَرَّجْنَ في المقابل عن الكلام مع قريبٍ، أو صديقٍ، أو زميلِ عمل!! كم **يُسِيئُني** منسوبُ الوَرَعِ الكاذِب، والتمثيلِ المبتَذَلِ، في تواصل رجال ونساء واقعنا! والعجيب! أنَّ مُجرّدَ إعلانك عن رأيك هذا يجعلُك في قَفَصِ **الاتّهامِ** الاجتماعيّ؛ ويُعَرِّضُك **للاغتِيالِ** المعنَوِيّ!!

قِلَّةُ حِيلَتِنا... وَهَوانُ أَمرِنا... في النَّاسِ سَبَبُهُما: **إسلامِيٌّ مُتَشَدِّدٌ مُغالٍ**؛ مَثَّلَ **دِينَنا**! و**عَلمانِيٌّ مُتَغَرِّبٌ مُجافٍ**؛ مَثَّلَ **دُنيانا**! وإلَّا؛ فتَأَمَّلُوا معي هذا الرُّشْد: "... **فَشَرِبَ قائِمًا**، فَقالَ: **إنَّ ناسًا يَكْرَهُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَشْرَبَ وَهُوَ قائِمٌ، وَإِنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَما رَأَيْتُمُونِي فَعَلْت**" (عَلِيُّ بْن أَبِي طالِب ﷺ - البُخارِيّ)

اللهُمَّ! إنّي أُشهِدُكَ، وعن تَجرِبةٍ مَعِيشَةٍ مَعَ مَن يُعرَفُونَ ويُعَرَّفُونَ بـ"**الإسلامِيّين**"!! أنَّ غالِبِيَّتَهُم مِن **أَعصى** الخَلْقِ عن قَبولِ النَّقْدِ...!! نعم؛ **أعصاهُم** لِما ثَبَتَ عن رسول رب العالمين ﷺ: "**أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ... فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذا أَرادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَيَقُولُوا: ما شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ**"(مُحَمَّد ﷺ - صَحِيحُ النَّسائِيّ) فتَجِدُ أحدَهُم في الواقِعِ: "**يُبْصِرُ القَذى فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسى الجِذْعَ فِي عَيْنِه**"(مُحَمَّد ﷺ - صَحِيحُ الجامِع). وهذا **العِصيانُ** لله ﷻ ورسوله ﷺ هو من أهمِّ أسبابِ إحداثِ **رَدِّ الفِعلِ** المذكور... لا بل و"**تَمَتْرُسِ**" الآخَر وراءَه!

نِسبِيًّا؛ ألا يشفعُ للراحلة، من الناحية **الفِطريَّة**، أنها امْرأَةٌ؟! وبالتالي؛ وُجوبُ إعذارِنا وتفهُّمِنا لِتَوَجُّهِها **النفسيّ العقليّ** (Attitude)؛ والذي اتَّسَمَ **بالانفعاليَّةِ والعاطِفِيَّةِ** الفِطريَّةِ في تعاطيها معالجاتها الاجتماعية وما كان منها؛ شخصًا ونِتاجًا؟! أَلَسْنا مَن يُكَرِّرُ ما رُوِيَ عن سيّد العدل الإنسانيّ عمر بن الخطاب ﷺ: "**أَعقَلُ الناسِ أَعْذَرُهُم للنَّاس**"؟!!

بَدَلَ **الاستِغْراقِ والغَرَقِ** في آثارِ (Effects) ظاهرة د. السّعداوي بأسلوبٍ **سلبيّ تآكُليّ**؛ بالانحطاط في مستنقع شَهَواتِ: **الإفحام** (إسْكاتُ المرءِ بِحُجَجِهِ وَعِلْمِهِ)، **والانتقام**، **والشَّتْم**، **والتَّوصِيفات**؛ من قَبِيلِ: "**حَيْزَبُونَ**" (أي عَجوزٌ سيّئةُ الخُلُق) و"**حَمَّالَةَ الحَطَب**"... إلخ! بدل ذلك؛ أن نقوم **بِسَحْبِ فَتِيلِ الانفِجارِ**... والتعاطي بأسلوبٍ **إيجابيّ تكامُليّ**؛ بإقرار ما في هذه الآثار من حقّ، وصواب، وصحيح! مع تِبْيانِ ما فيها من باطلٍ، وضلالٍ، وانحِرافٍ، وإساءَة...! أليس هذا هو المنهجُ الأَقْوَمُ في تَفكِيكِ الظواهِرِ ومعالجَتِها؟! أو كما تَشِي لَطافَةُ العبارةِ الشعبيةِ المِصرية: "**فُكَّها شْوَيَّة**"!

الضَّالُّونَ فِكْرًا! وَالمُنْحَرِفُونَ سُلُوكًا! مَثَلُهُمْ فِي جَسَدِ الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ كَمَثَلِ الجَراثِيمِ وَالفَيْرُوساتِ بِأَصْنافِها المُخْتَلِفَةِ وَالمُتَنَوِّعَةِ فِي أَجْسامِنا...! الغايَةُ وَالعِبْرَةُ **لَيْسَ بِإِفْنائِها! وَإِنَّما بِتَعافِ وَعافِيَةِ مُقاوَمَةِ جِهازِ مَناعَتِنا!** وذلك **بِجَعلِها**... **واتِّخاذِها**... **لَقاحات**!

واللهُ وَلِيُّ التَّوفيقِ والهادِي إليه،،،

التاريخ: 11، شعبان (08)، 1442هـ
الموافق: 24، آذار (03)، 2021م

***مستشارومُدَرِّب وباحث إدارة مشروعات**